مُبْتَدَرٌ

لِلأَمَامِ يَسِيرُ العَاشِقُ بَيْنَمَا يَتَخَلَّفُ قَلبُهُ عَنْهُ، فَالقَلبُ أَشَدُّ أَعْضَاءِ الإِنْسَانِ تِحْنَانًا لِلمَاضِي، وَأَكْثُرُهَا حَنِينًا لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ، فَإِنْ سَارَ مَعَ صَاحِبِهِ التَفَتَ فَأَطَالَ الالتِفَاتَ، تَحَوَّلَ بِنَبَضَاتِهِ الرَّعْنَاءِ إِلَى عُنُقٍ مُلتَفِتٍ إِلَى المَاضِي المُنْقَضِي، إِلَى الفَائِتِ الفَاتِنِ، يَعْدُو عُنُقًا طَوِيلًا مُمْتَدًّا فِي مَسَارِبِ الأَمْسِ، إِنَّهُ يَسِيرُ فِي اتِّجَاهٍ عَكْسِيٍّ، فَالقُلُوبُ دَائِمَةُ الانْجِذَابِ لِلوَرَاءِ، كَثِيرَةُ الالتِفَاتِ نَحْوَهُ، وَإِنْ بَدَتْ نَبَضَاتُهَا سَيْرًا لِلأَمَامِ إِنَّمَا هِيَ رُجُوعٌ حَقِيقِيٌّ لِلخَلفِ، قَهْقَرَى سِرِّيَّةٌ، تَسَرُّبٌ إِلَى الأَمْسِ، اِنْسِلالٌ إِلَى المَاضِي الآسِرِ الأَثِيرِ.

أَلا تُصَدِّقُونَ أَنَّ القُلُوبَ تَلتَفِتُ بِأَعْنَاقِهَا، بِنَبْضِهَا المَذْعُورِ المُتَمَرِّدِ، بِأَشْوَاقِهَا الجَامِحَةِ، أَلَمْ يَقُلِ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ:

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فَمُذْ خَفِيَتْ عَنِّي الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القَلبُ

أَلَمْ يَقُل شَوْقِي:

وَبِجَانِبِي وَاهٍ كَأَنَّ خُفُوقَهُ لَمَّا تَلَفَّتَ جَهْشَةُ المُتَبَاكِي.

وَهَذَا القَلبُ، قَلبِي، مُلتَفِتٌ أَبَدًا كَقَلبَيْهِمَا، كَقُلُوبِ كُلِّ العَاشِقِينَ.

يَا الله! كَيْفَ عِشْتُ كُلَّ هَذَا العُمَرِ بِقَلبٍ مُلتَفِتٍ..!؟ أَمْضِي مُلتَفِتًا إِلَى حَيْثُمَا يَنْظُرُ قَلبِي، فِي قَهْقَرَةِ الخُطُوَاتِ وَالنَّبْضِ وَالذِّكْرِيَاتِ..! أَعْنِي يَمْضِي مُلتَفِتًا إِلَى كُلِّ أَمْسٍ أَحْبَبْتُهُ، إِلَى كُلِّ مَنْ وَمَا أَحْبَبْتُ فِي أَمْسٍ. فَمُنْذَاكَ؛ مُنْذُ طُفُولَةِ القَلبِ وَالرُّوحِ، مُنْذُ التِفَاتَتِي الأُولَى، وَأَنَا أَخُوضُ فِي مَسِيرِ التِفَاتٍ دَائِمٍ، أَظَلُّ مُلتَفِتًا أَبَدًا بِقَلبِي وَذَاكِرَتِي؛ فَالطُّفُولَةُ تَلوِي قَلبِي نَحْوَهَا، وَالوَطَنُ يَسْتَحْوِذُ عَلَى كُلِّ لَفْتَةٍ مُدْهِشَةٍ إِلَيْهِ، كُلِّ اسْتِدَارَةٍ نَحْوَ الجَمَالِ بِالقَلبِ أَوْ بِالرُّوحِ، بِالعُمُرِ كُلِّهِ، كَمَا يُلفِتُ الرَّبِيعُ قَلبِي إِلَيْهِ، وَيُدِيرُ الجَمَالُ قَلبِي نَاحِيَتَهُ، وَيُوَارِبُ الحُسْنُ قَلبِي تُجَاهَهُ، عَلَى عَالَمِهِ البَهِيِّ الطَّلِيِّ الشَّذِيِّ، يَضْبُطُ قَلبِي نَبْضَاتِهِ عَلَى تَوْقِيتِ الجَمَالِ العَالَمِيِّ، يَنْبُضُ بِنَبْضِهِ، فَلا يَتَأَخَّرُ وَلا يَتَقَدَّمُ، فَأَمْضِي

مُلتَفِتًا إِلَى كُلِّ مَعَانِي الجَمَالِ فِي مَغَانِيهِ الكَثِيرَةِ الأَثِيرَةِ؛ فَأَنَا أَسِيرُ بِقَلبٍ مُتَلَفِّتٍ – أَبَدًا – نَحْوَ مَغَانِي الجَمَالِ، وَمَعَانِي الحُسْنِ، أَبَدًا مُسَعِّرٌ لَهَفَهُ لِلحُبِّ، أَمْضِي بِعَيْنَيْنِ مَرْهُونَتَيْنِ لِلهَوَى.. هُنَاكَ تَجِدُونَنِي، هُنَاكَ أَجِدُ قَلبِي، مُلتَفِتًا إِلَيْكُمْ، إِلَى كُلِّ جَمِيلٍ يَرَاهُ، إِلَى كُلِّ حُسْنٍ سَيْرَاهُ، إِلَى أَيِّ بَهَاءٍ مِنَ المُحْتَمِلِ أَنْ يَرَاهُ..!!